حول التحول العالمي الجديد

ودور العرب في المرحلة القادمة

منذ قمة «ريكافيك» بين غورباتشوف وريغان، سيطرت حركة التحول إلى الوفاق بين أمريكا والاتحاد السوفياتي على أجهزة الاعلام في العالم، وهيمنت على اهتمام كل الناس، واستقطبت تحليلات معظم المعلقين والمفكرين والفلاسفة الأحياء في هذا العصر، وما زال هذا التيار يشتد زخماً مع الأيام، ليتحول إلى شبه انفجار سلمي من المنتظر أن يمهد لبناء عالمي جديد على قواعد مغايرة تماماً . . .

ولا شك أن هذا الذي يجري في عالمنا المبهور بهذه التحولات المفاجئة مبرر أمام حشد النظريات التي عاش العالم على هديها أكثر من قرن من الزمان، والتي أرست قواعد للتفكير تبدو حقائق ثابتة لا يتطرق إليها الشك، وسيطرت العقود الطوال على نشوء الدول والحكومات والعلاقات فيما بينها، وعلى قراراتها وأهدافها البعيدة والقريبة لبناء وخدمة مجتمعاتها وشعوبها، وظلت «الحتميات» تبدو وكأنها قدر الإنسان على هذه الأرض، عن الثورة والصراع الطبقي، والتناقض، في ظلها أصبح التنسيق محرماً بين مصالح «البروليتاريا» و«البرجوازية» وغدا التفاهم ـ فضلاً عن الاندماج بين الرأسمالية والاشتراكية ـ لونا من ألوان العبث والضلال. لقد كان العالم يقف في مواجهة

جبرية، بين الرأسمالية والامبريالية، التي لا تعامل ـ ماركسياً ـ إلا بالحزم والثورة، وبين ما دعاه «ريغان» بـ «امبراطورية الشر» التي لا يجب أن تعامل ـ في رأيه ـ الا بالقوة، وبمزيد من القوة والعنف!

وفجأة يتحطم القالب ويذوب الجماد، وتختفي الحواجز، ويجري حوار الأضداد من فوق ركام الماضي ليقف على عتبة هذا الوفاق العجيب!

إن الإعلام الغربي يجهد لرد هذا التحول العالمي في مجمله إلى عيوب الماركسية، وفشل النظام الشيوعي في معركة تقدم الشعوب ورفاهيتها، ويركز ـ كدليل ـ على: صفقات القمح، وفشل الحزب القائد في هذا النظام في إطعام الشعب السوفياتي، الذي يملك المساحة الأكبر، من أي دولة في العالم، رغم أن النظام الرأسمالي لا يقل فشلاً وكثرة في العيوب عن منافسه، والتي تتجلى اليوم في التضخم والبطالة والمديونية المذهلة لزعيمة الغرب والدولة الرأسمالية الكبرى، ولكن على الرغم من هذه المحاولات لتلميع الماضي والصمود على اطلاله في الغرب أو في الشرق، فإن الذي لا خلاف عليه، هو أن هذا الوفاق الذي توصلت إليه أمريكا والاتحاد السوفياتي، هو في مجمله ثمرة للتقدم التكنولوجي في الكتلتين، الشرقية والغربية، والذي وصل بالذرة إلى ساحة الصراع العالمي بينهما، وعلى هذا فإن الخوف والرعب الذي أثاره السلاح الذري في صدور صانعيه، هو الذي قاد إلى هذا الانفجار السلمي في العلاقات بين الدول والذي نعيش بداياته اليوم.

رجل المرحلة

لم يكن خافياً حجم الدمار الذي يمكن أن يسببه السلاح الذري، والأخطار التي يمكن أن تتهدد الجنس البشري من جرائه، من الانفجار الذري الأول على هيروشيما وناغازاكي والذي لا يزال الناس يتحدثون عن هوله، رغم أنه كان البداية البسيطة بالنسبة لما وصل إليه السلاح الذري اليوم، لقد كان واضحا أن هذا السلاح سيصل بالحرب إلى نقطة المستحيل، إذا ظل للعقل دوره في قرارات الحرب والسلام، ولعل زمرة الجواسيس العلماء الذين نجحوا في تسريب الأسرار الذرية الغربية المتقدمة إلى داخل الستار الحديدي في بداية الحرب الباردة، كانوا يقومون بأول عمليات التوازن في امتلاك هذا السلاح، ليكون بداية لما يسمى فيما بعد، بتوازن الرعب النووي، الذي استمر إلى أكثر من ثلاثين عاما، ولقد كان يمكن لهذا التوازن والتنافس أو التسابق في تطوير هذا السلاح ونشره في أعماق البحار أو أبعاد السموات أن يستمر إلى النهاية، نهاية العالم، لولا هذا الرجل الديناميكي، غورباتشوف، الذي يعتبر في تقديرنا رجل المرحلة، الذي بدأ هجومه السلمي على دعاة المواجهة، في الشرق والغرب معاً.

من الواضح أن الرجل قد اندفع عن قناعة وإيمان باستحالة الحرب الذرية، إذا أريد للإنسان أن يعيش على هذه الأرض. فلقد كان الدمار الشامل والفناء الأكيد للبشرية ـ والذي كان في مقدمة النذر عليهما، التسرب الذري في مفاعل «شرنوبل» ـ هما صوت النذير الذي أطلقه الزعيم السوفياتي لتبرير

ريغان

تاتشر

غورباتشوف

دعوته لتدمير المخزون الذري، وإنهاء المواجهات العسكرية بين الشـرق والغـرب، ودعـوتـه للانفتاح وإعادة البناء داخل الكتلة الشيوعية وخارجها، وإذا كان الغرب قد استجاب بحذر إلى هذه الدعوة، بحجة التفوق السوفياتي في الحرب التقليدية، وبدعوى أن السلاح الذري ـ كما تقول تاتشر ـ رئيسة وزراء بريطانيا قد أصبح هو الضمانة لمنع الحرب، حتى التقليدية منها، فإن من الواضح أنه لا رجوع عن الانطلاق في تيار الوفاق، وإن العالم كله يسرع الخطى لفك عقد كل المشاكل، وإطفاء كل بؤر التوتر على ظهـر هذا الكـوكب، فمن أفغانستان إلى الهند والصين، وكمبـوتشيا وفيتنـام وتـايلانـد، وإلى منطقة الخليج، والصومال وأرتيريا والحبشة وجنوب السودان وجنوب إفريقيا وناميبيا، وإلى كل بقعة ترتفع فيها حرارة الصراع، ويتحرك فيها عصب النفوذ الأجنبي، فإن الاتصـالات تجـري في السر والعلن، والوسطاء يغـدون ويروحـون، واللقـاءات والحـوارات على أشدها، وقد يختفي زعماء ويظهر زعماء آخرون، وقد تسقط حكومة وتؤلف أخرى لضمان الاتفاقات المطلوبة.

وقـد يشتـد العجب بسكان هذه الكرة وهم يتابعون من خلال شاشات التلفزيون أو وكالات الأنباء، كيف أمكن لنجيب الله أن يدعو فجأة إلى حل الحزب الشيوعي العتيد، وأن تتحاور موسكو مع الملك ظاهرشاه، وهي التي دفعت به إلى هذا المنفى، وأن تبدأ القوات الكوبية في الانسحاب من ناميبيا، وتجنح العنصرية العـدوانية في بروبتوريا إلى الاعتدال، وأن يقف جريان الدماء التي سالت طويلاً في الهند الصينية، وأن يتنقل راجيف غاندي سريعـاً من بكين إلى إسـلام آباد، وأن تدب الحياة فيما سمي بقضية الشـرق الأوسط، وأن تستيقظ منظمة الأمم المتحدة للقيام بدورهـا الـذي أهيل عليه التـراب، أو تجمـد في الأضابير من عشرات السنين، وأن يلمع أمينها العام كشخصية عالمية أولى، تكافح من أجل السلام، وأن يجري ذلك كله في أيام متقاربة، قد يكشف إلى حد بعيد، مدى امتداد الأصابع الخفية للكبار، أو يفضـح أسـاليبها وأدواتها في معظم جبهات الصراع، الذي يجـري ـ إقليميا ـ تحت ألـوية الشعـارات التي تخطف أبصار الشعوب والجماعات المتناحرة.

** ** **

إن كوارث كثيرة تلطخ وجه الحياة في أنحاء متفرقة من هذا العـالم، فضحـايا المجـاعـات في افـريقيا وجنـوب السودان، وضحايا الفيضانات في بنغلاديش، والصين، وفي غير هذه وتلك مما يصل إلى مئات الألوف، وكارثة الزلازل في شمال أرمينيا هي واحدة من هذه الكوارث التي تزلزل ـ أو يجب أن تزلزل ـ ضمائر الإنسـانية جمعـاء، ولكن هذه الكارثة تتميز من بينها بالكيف،

والموقع، والتوقيت، فقد اختفت مدينة عدد سكانها خمسون ألفاً من الوجود هي سبيتناك، ودمر ثلثا مدينة «لينينا كان» في أسوأ موجات الصقيع الجليدية، وفي نقطة معينة من حركة الوفاق الدولي.

ولعل عرس الوفاق هذا، كان في حاجة إلى شحنات كبيرة من العواطف تثار من حوله أقوى وأكبر مما قد يثيره تعاون العمالقة على إنقاذ حيتان الاسكا في البحار المتجمدة، لعله كان في حاجة إلى مثل كارثة زلزال أرمينيا السوفياتية، لكي يهب سكان العالم للنجدة، ويشارك التجمع الإنساني كله في الأحزان، بصورة لم يسبق لها مثيل في التاريخ، تشهد على حقيقة التحول، حين يجهش أبناء الرئيس الأمريكي «بوش» في البكاء تأثرا من صور الدمار وفظاعة المأساة في شمال أرمينيا، التي كانت إلى وقت قريب من حصون «إمبراطورية الشر» نقول ربما كان الوفاق في حاجة إلى مثل هذه الشحنات القوية من العواطف الإنسانية الحقيقية، لعلها تستطيع أن تغسل الأطماع وأحقاد الماضي الأسود من صدور أصحابه وتكشف حجب المستقبل المشرق، عن أبعاد الحب، ومجالات التعاون التي يمكن أن يصل إليها مستقبل الإنسان.